لن تنكّس الراية التي حملتها

■ وجه إنساني كبير يغيب في حلكة الظلام.. بعد أن أضاء جوانب مظلمة من حياة الكثيرين من أبناء شعبنا ووطننا، وقد ترك رحيله المفاجئ صدى واسعاً ومؤلماً لكل من عمل معه أو عرفه.

عرفته منذ السبعينيات في حومة العمل الحزبي والسياسي، ولم ينقطع عملنا طيلة تلك السنوات الطوال في مجالات مختلفة، حتى قبل رحيله بيوم واحد، رغم بعض الاختلاف في وجهات النظر من هذه القضية أو تلك. فقد كان يحترم الرأي الآخر بعيداً عن أية نزعة تعصبية، الأمر الذي طبع مجمل مواقفه.

كانت عائلته تسكن في حي الطبالة الشعبي، أحد أحياء دمشق، بعد أن غادروا بلدتهم (خرَبا) إحدى القرى الواقعة بين حوران والسويداء إلى دمشق، طلباً لإكمال التعليم والعمل.. وكان باسم قد تخرج حديثاً في كلية الآداب والعلوم الإنسانية– قسم الجغرافيا.

والتحق بالتدريس في الثانويات بعد تخرجه لأكثر من خمس سنوات، وقد أفردت له العائلة غرفة صغيرة في المنزل بعد زواجه من بنت بلدتهم سميرة الصدي.. فقد كانت العائلتان متجاورتين أيضاً في دمشق، وكانت سميرة الشابة الممتلئة نشاطاً وحيوية وتطلعاً إلى المستقبل تعمل في شركة الشرق للألبسة الداخلية عاملة ونقابية وفي لجنة المرأة العاملة.

عاش باسم في أجواب تمايز طبقي حاد جداً، فقد كان أبوه إبراهيم عبدو يعمل لدى الإقطاع من آل الأطرش في منطقتهم (خرَبا) في ظروف صعبة ومعقدة وشاقة، وكثيراً ما كان يتعرض لصنوف شتى من العذاب تصل أحياناً إلى الضرب بكعب البارودة أو بأدوات زراعية حادة، وكانت هذه الأفعال الشنيعة تواجه بغضب شديد من أهالي القرية.

رغم ما كان يتمتع به هذا الأب من نشاط في العمل ودماثة الخلق والبساطة وحبه للآخرين خاصة أبناء بلدته الذين يعملون مثله، كان يحسن القراءة والكتابة، وينظم بعض الأبيات من الشعر الشعبي وبعض الأشعار الذي حفظها عن ظهر قلب.

ومن هنا ربط باسم مصيره بمصير الكادحين من أبناء شعبه وهو في يفاعة الشباب.. كان رمزاً لجيل اتسم بالثورية والوفاء والإخلاص والجاهزية لمواجهة متطلبات النضال الوطني والإنساني، فالتزم بالحزب الشيوعي السوري في السنوات الأوائل من السبعينيات، ومن موقعه الطبقي أسهم بنشاط في إبراز الوجه الطبقي للحزب بوصفه حزباً للطبقة العاملة والفلاحين وحلفائهم المباشرين من كادحي المدينة والريف والمثقفين الثوريين، وإبراز دورهم في عملية التغيير الثوري.

وقد رافقته زوجته سميرة في دربه الطويل، وتحمّلت معه العذاب والمعاناة وسنوات الغياب الطويلة.. فقد عمل لسنوات مدرساً في ثانويات محافظة الحسكة، وبعد ذلك التحق بخدمة العلم، فأرسل إلى لبنان ضمن قوات الردع، آنذاك لأكثر من ثلاث سنوات ونصف، وكانت زوجته توزع أوقاتها ما بين العمل والبيت الذي أصبح يضم أطفالاً ثلاثة..

وبعد ذلك استقر في دمشق، كانت غرفته الصغيرة تضيق بالاجتماعات واللقاءات وتداول الأمور في النشاط الحزبي، وزوجته تقوم بما يلزم من مساعدات. كان أبو شفيع يملك حباً أصيلاً للإنسان، مدافعاً صلباً عن الحق والعدالة، مدافعاً بامتياز عن قضايا المرأة وحقوقها، مثالاً للجرأة والإنسانية والقدرة والوفاء، بعيداً عن أية نزعة تعصبية لهذا أو ذاك، الأمر الذي طبع مجمل مواقفه.

حمل هموماً رافقته حتى الموت.. هموم جماهير شعبنا ومعاناة هموم الوطن الذي يواجه تحديات خطيرة، وكان حضوره دائماً مشعاً يستمد منه الآخرون الأمل.

بأي عاطفة وصدق كان يتحدث عن أولاده شفيع ولينا وجميلة، وأحفاده، وزوجته الرائعة التي كانت تعمل بصمت ونكران ذات والتي رافقته في مسيرته الطويلة، وكانت خير معين له في حياته والتي احتضنته بكل جوارحها في كل الظروف الصعبة التي مر بها، وأولاده الذين يكنون له كل مشاعر الحب والاحترام.

كان شجاعاً حتى اللحظات الأخيرة، لم يستسلم لوضعه المرضي، ولم ينحنِ أمامه، إلى أن هبت عاصفة الردىَ وكانت أقوى من أن يصدها.

خسارتنا بوفاة رفيقنا باسم كبيرة، خسارة مناضل اختزن تجربة نضالية غنية كرسها لخدمة الوطن والناس.

سنفتقد شخصه، لكن روحه ستظل حاضرة بيننا..

كانت رحلته شاقة، ولكنها أهّلته مع الأيام لأن يحتل مرتبة في الأدب وفي العطاء الأدبي الإبداعي.

تعازينا الحارة لعائلته الكريمة ولرفاقه وأصدقائه.

زينب نبّوه

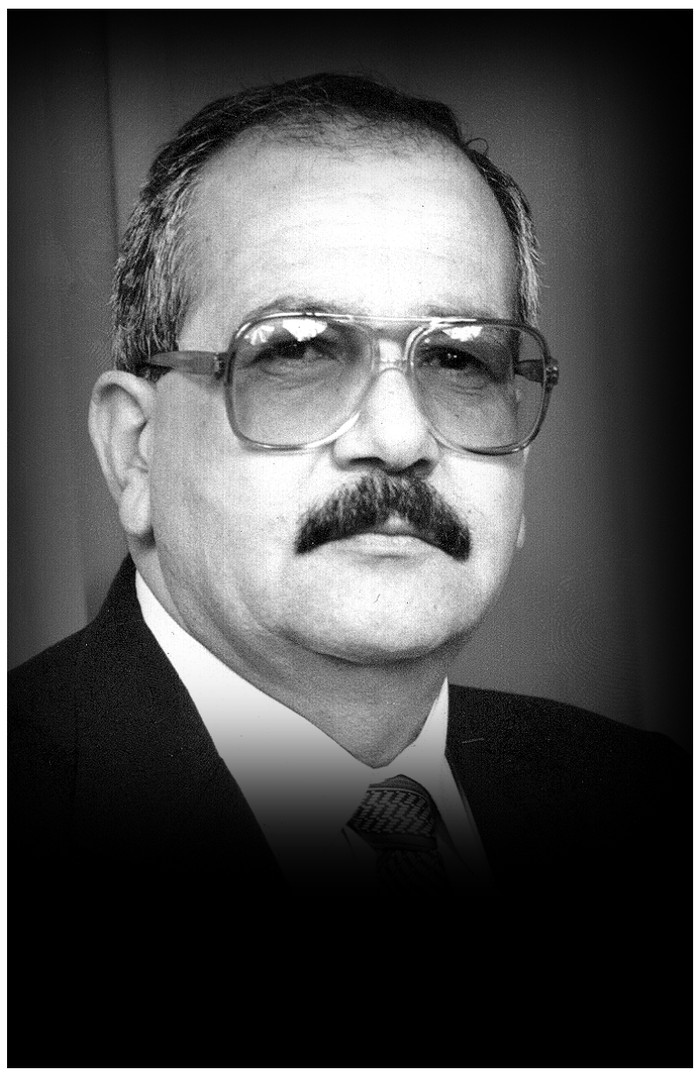

شجرة الدفء الباسقة

في رحيل صديقي ورفيقي باسم عبدو

■ كانت هذه المرة الأخيرة التي رأيته فيها بعد زيارته لي في مشفى المجتهد بدمشق، صديقي الذي لا يعوّض، صديق الأربعين سنة خلت، ولا أنسى مدى تأثره ورفعه لمعنوياتي وهو يطمئنني أو أحياناً يتعجب: أنه هل هناك مرض يرميني؟

صديقي باسم الذي فقدته.. فقدت فيه المحبة والغيرة و(شرفات كلامه) التي كان يثرينا بها أسبوعياً، والتي تحمل هموم الناس وأفراحهم وأحزانهم، وتلتقط الخيوط التي كان القلائل يلتقطونها، لذا أصبحت هذه الشرفات محطة هامة في جريدتنا، وأصبحت مقروءة كل أسبوع من قبل المهتمين و أشخاص كثيرين.

ماذا أقول وأضيف..؟ عن محطاته الأسبوعية في الأسبوع الأدبي في القصة والرواية وعن أشياء أخرى.

باسم.. صخرة من هذا الوطن رسمت أبعاداً فيه، وخطوطاً لا تمحى عبر سنوات وسنوات في نفوس محبيه، وأصبح معلماً أدبياً برز لاسيما في السنين الأخيرة مازجاً بين السياسة والحزب والأدب، وقد تفاعل بكل جوارحه وإبداعاته بما يحدث في هذا الوطن العظيم.

باسم، أنعيه فرداً وكاتباً وصديقاً ورفيقاً يصعب أن يعوض..أنعى نفسي وأتعجب كيف صار أن نفقد مثل تلك الشجرة الباسقة وهي من أشجار وطننا الغالي، ومن قمم حزبنا التي نفتخر بها وسنظل نفتخر، وهي، مثل ما قال أحد الكتاب، من شموخ جبل قاسيون التي نراها مرفرفة في الأعالي وتُرى من البعيد.. إنه أديب كبير فقدناه.. وواحد من الرجال الذين فقدناهم.

ماذا نقول؟وما الذي سيعوضنا؟ أعتقد لا شيء.. لاشيء...، ولكن الذي سيعوضنا هو بقاء روحه خالدة لرفاقه ومحبيه.. وداعاً باسم، أيها الشجرة الباسقة..

محمد خالد رمضان

سآتيك متأخراً أيضاً

■ لم يأتني صوتك هذا الأحد أيضاً: أين مادة (شرفات)؟

هكذا أيضاً...لم يتسنَ لي أن أعدك بإرسالها مساء، ثم أتأخر إلى صباح اليوم التالي لعلة في الكهرباء العليلة غالباً، أو لكسل مزروع في الخلايا، أو لوعكة حب عابرة...

الأحد قبل الفائت، وحالما شاهدت رقم (النور) على الموبايل قلت: إنه (أبو شفيع) سيسأل كما هي العادة، وكان الجواب المعتاد حاضراً: (اليوم مساء سأرسلها)، لكن جاءني هذه المرة صوت الصديق النبيل محمود هلال، كان مثقلاً بالحزن، لم أتركه ليسأل، أعطيته الجواب الجاهز...لكنه تلكأ قليلاً ثم أخبرني برحيلك...

وكما هي العادة تأخرتُ عليكَ هذه المرة أيضاً أبا شفيع...

لم أخاطبك وأنت خارج التراب، لم أفسد خلوتك الأخيرة مع الضوء، أعرف أنك كنت تتأمل الأوراق التي لم تكملها، مشاريع المقالات القادمة، القصص التي كان أبطالها يلحّون عليك كي تريحهم من انتظار مصائرهم، فيما أنت بهدوئك المعهود تمهلهم ريثما ننتهي من إخراج (النور)، ثم...ريثما نصدر العدد الجديد من (الأسبوع الأدبي)، ثم... لا بد من تأمين متطلبات البيت والعائلة، فيبقى أبطالك مشدودين إلى قلم أو إلى قلب لا يلبث أن يعود إليهم، يتأملهم في حب، ثم يدفعهم إلى أقدارهم المحتومة....

كان لا بد من أن أتأخر عليك هنا أيضاً، لأكتب عنك، لا لك، هذه المرة وأنت تحت التراب، ولطالما كتبتَ عن حب هذا التراب!!...

نحن الذين نرفل في موتنا اليومي نفاجأ بموت الأحبة وكأن الموت ليس ضيف سورية اليومي الثقيل منذ خمس سنوات عجاف...لا لشيء سوى لأننا نحبهم، نتوقع منهم أن يبقوا معنا لنشهد ولادة جديدة لهذه الـ(سورية السعيدة كمدفأة في كانون... التعيسة كعظمة بين أسنان كلب..) كما قال عنها رياض، الشاعر الذي لم يكبر سوى في القصيدة، نتوقع منهم أن يشيعونا هم إلى موت يكمن لنا على الأرصفة وفي الحدائق والأسواق وفي أحلامنا أيضاً، لم تعد لنا أحلام.

هل قلت (أحلام)؟!..

لا ليس ثمة أحلام هنا، هي محض كوابيس أورثتنا إياها هذه الحرب العمياء.

كنا ونحن نلوك خلافات موهومة بين تنظيمات فرّخها حزب واحد وقائد واحد أحد فرد صمد، ننظر أحدنا إلى الآخر من تلك البوابة الضيقة: (هذا من جماعة فلان)، فتبدأ الأحكام المسبقة، وتسدّ سبل الحوار والتواصل بين من ينهلون من نبع واحد، وحالما عرفتك في (النور) لُمْتُ نفسي كثيراً على أني لم أسعَ لمعرفتك قلباً لقلب، حين كانت بغضاء العشائر تبني جدرانها بيننا، كما لم أسعَ للتعرف إلى الرفاق في (النور) التي تميّزت منذ بدايتها، ولم تقبل أن تكون منشوراً حزبياً ضيقاً يلوك ماضياً فيه الأبيض المشرف، وفيه من السواد ما يحتاج إلى أنهر لغسله من أدران الصمت...

اختلفنا مراراً، وأذكر مرة احتد الخلاف بيننا وارتفعت أصواتنا، لكنكَ في اليوم التالي كنتَ، كعادتك، مغسولاً بماء الوداعة والألفة، محوتَ كل ما كان بمصافحة وابتسامة...

سريعاً تعب القلب أبا شفيع.

تعب القلب وما زال في الطريق متسع للمزيد من التعب نتقاسمه، وننحت منه صورة لبلاد قادمة لا تنام على صرخات الجياع والمقهورين والمظلومين...

تعب القلب، والنهار بطيء الخطا في مدلهم الليل الذي نحيا...

صديقي الكبير...ها أنت تغمض عينيك، فيما روحك لا تغمض، ترتل لمن أمضيتَ العمر وأنت تنتقي أجمل كلماتك له، لوطن يحيله القهر إلى منفى، فتفك بالكلمات أسر الحلم وتطلقه في برار فسيحة...

أبا شفيع...لروحك الوديعة الهانئة كل السلام...

وهنا في (النور) سنبقى ونغني ونصرخ ملء أرواحنا للوطن، للحرية، للفقراء...

حسين خليفة

من الجَمل أُذنه!

■ ياعيب الشوم..

مصطلح تستخدمه العامة والخاصة، لإبداء الاستغراب الاستنكاري، إزاء قول، أو فعل، أو موقف ما، غير متوقع ولا لائق، وربما لا معقول، حسب المعايير الإنسانية. يصدر عن شخصية أو مؤسسة أو جهة اعتبارية، أهلية أو رسمية. وكلما كانت تلك الشخصية أو الجهة، تمثل نسبة أكبر من الشعب، وبالتالي مسؤولية أكبر من سواها، كانت الطامة أكبر.

ولصديقتي التي اعتادت من باب (ليطمئن قلبي.. ولأقطع الشك باليقين)، أن تقول لك: مثلاً؟ حتى لو قلت لها: تتوافر سورية على أنواع من الفساد والفاكهة. لصديقتي تلك ولمثيلاتها وأمثالها، لا ضير في أن نمثل لِجَمَل عيوبنا، مجتمعاً وحكومات، ببعض أُذنه:

يمضي كثيرون سحابة عمرهم في متناول مشاعرنا، ولا نقدّر فداحة عدم إعلانهم حبنا لهم، إلا غداة رحيلهم.

يشغل بعضنا، رجالا ونساء، بالساعات، الآخرين، في فضلات الكلام، من مجاملات ومبالغات. ويعدّون من عدم (الإيتيكيت).. بل ومن الإهانة، أن يلفت الآخرون عنايتهم أو عنايتهن إلى مرور الوقت.

تلهج الأفواه الرسمية باسم المواطن.. تتغنى الشعارات بحقوقه.. تنص الدساتير على إنصافه.. تعقد المؤتمرات من أجل تحسين ظروفه وتقام الاحتفالات والحفلات والولائم على شرفه، في الوقت الذي يتقلّى فيه ذلك المواطن على مالا يحسد عليه من نار الذلّ والحرمان.

يؤرّق الإبداع حياةصاحبه.. يستهلك عصارة فكره وحواسه.. قد يشكل من قريب أو بعيد سبب رحيله. ويستكثر بعضنا على المبدع، لحظات زهوٍ يزفّ فيها إلينا، عروس إبداعه.

يختار بعضهن فاضح الثياب، أو يفصّلنه على حجم الإغواء لديهن. ويستنكرن بشدة وبوقاحة أحياناً، إذا ما نظر أحدهم إلى ما جهدن أصلاً من أجل إبرازه، وخطف الأنظار إليه.

يضحي الأهل في سبيل مستقبل أبنائهم، ما استطاعوا التضحية، مجترحين الحلول للصعاب والعقبات، عناية ورعاية. ويخجل بعض الأبناء بذكر أصلهم، أو بتقديم أحد أبويهم، لزميل أو مسؤول.

على الرغم من أنه، لم يعد موضع خلاف، بين كبير وصغير.. رفيع ووضيع.. عدو وصديق.. ولا بين فريق وفريق. أن غير قليل من الأساليب الخاطئة التي اتبعها مسؤولونا في الإدارة، والاقتصاد والسياسة والثقافة وسائر قطاعاتنا ومرافقنا، كانت سبباً أساساً، في ما شهدته وشاهدته بلادنا خلال خمس السنين المارقة، من كوارث.

ما زال كثير من المسؤولين يواظبون على ممارسة أساليبهم الكارثية، وكأن كوارث لم تكن.

تصل إلى كراج السويداء في دمشق، راجعاً من عملك، فتجد ساحته –كما في معظم الأحيان– تعج بالركاب، فيما يلتئم على مدخله، شمل بعض السائقين (من خارج الخط) مع بعض عناصر المفرزة، تلف سحنهم جميعا، هالة من عتم الهم والاهتمام والخطورة (كما لو أنهم صاروا على بعد قلبة دولاب من حلّ أزمة البلد):

سائق، تتبدل قسمات وجهه والتماعة عينيه، كتبدل مؤشرات سيارة عجوز، بين يدي سائق مبتدئ..

ثانٍ، تدور ذراعاه يميناً وشمالاً وأعلى وأسفل، مثل رادار يلاحق وسط أسوأ أحوال جوية هدفاً..

وثالث (يتجنبظ) على راصورات رجليه ونوابض رقبته..

وكلّ منهم يطرح أجرة معينة للراكب، مشفوعة بعدد من الأيمان وآخرَ مما تفضل وسامح به من حقه، تقديرا للظروف الحرجة التي يمرّ بها الوطن والمواطن. إلا أنّ أيّا من الأرقام المطروحة، لم ينزل تحت أضعاف التعرفة الرسمية الظالمة أصلاً (ضعفين، ثلاثة، وما فوق). ولِمَ لا، ما دام الركاب مقطوعين..و(الشوفيرية) معذورين.. والرقابة غائبة.. والضمائر معطوبة.. والحق مهضوم.. يا عيب الشوم!

حسني هلال
hosnyhlal@yahoo.com

السماء السابعة

■ (المعذبون في الأرض)، كانت رائعة (فرانس فانون) في أزمنة مضت، لكنها الحكايات ذاتها المفتوحة التي كسرت إطارها، وحلقت إلى أبعد من سماء سابعة، والشوارع غدت صحائف يكاد حبرها يفيض بالمكلومين، التائهين الذين لا يلوون على شيء، فقط تسيل من أفواههم الكلمات دون أن يسترها إلا القليل، لكأنها هي أيضاً من تبحث في الوجوه العابرة عن بقايا ابتسامة وجمر حروف لم تُقل بعد.

هي عادة الجنون أن يستبد بنا ليصبح القول مجدداً (الجنون الآن) لاسيما أن الجيوب أصبحت مثقوبة بما يكفي وليس من شأنها أن تسد رمقاً أو تُعيد سيرة حلم ما، وربما هو الواقع أصبح (فانتازياً) أكثر من اللزوم، إذ إن حكاياته لم تعد متفرقة كما هو الحال عادة، بل أصبحت مجتمعةً دفعةً واحدة، ويكاد القدر أن يأتي بالنهاية من البداية، وأن يدفع شخوص رواية الحياة إلى النهاية في بداياتهم المرتبكة ولو شاؤوا أن يركبوا البحر أو يسيروا في الشوارع مسرعين خوفاً من موت مفاجئ لا يحزرون من أين سيأتي ولن تكون غيمة عابرة واقية بما يكفي لمنع ذلك.

لكن المفارقة هي في كثرة (الرواة) الذين ينقلون الحدث في غير طريقة، فهو ليس متعتهم الوحيدة، هو جزء من حكايتهم التي لا تبتدئ ولا تنتهي، فالتغريبة أصبحت تغريبات داخلاً وخارجاً ربما من أجل لا شيء، ربما من أجل أكثر من حلم، ففي رواية (البرد) وهي أكثر الروايات الشائعة على ألسن لم تعد فيض متخيل فحسب، بل أصبحت واحدة من الحكايات التي لا يعوضها الحنين إلى أزمنة سالفة، بقدر ما جعل البرد كائناته قطعاً من لحم الآدمي يتكور ليلاً دون حلم ينتظره لتفسره شهرزاد في الصباح، وفي أزمنة الحنين كلها نخيط أطراف روايتنا بحثاً عن تلك الحلقة المفقودة التي تعيد المعنى إلى يومياتنا الهاربة بانتظام، حتى من مهارة تدوينها شفاهاً أو كتابةً لأن الحكاية تلبست البشر تماماً وصارت هي تحكي عنهم، عن الخوف والعزلة والحنين المُستعاد والأحلام المسروقة قمصانها في وضح النهار، فالإنسان– كما يقول الفيلسوف فريدريك نيتشه– أصبح ذئب الإنسان، فلا غرابة إذاً من خوف لم يعد أصيلاً ومن أدمغة لم تعد تفكر، فيما يتساءل أحدهم بسؤال استنكاري ساخر: هل تفكر الأقدام؟ وقياساً: هل تفكر الأيدي؟ وفي هذا المسار الأقرب إلى الفنتازي أو الخيال، يمكن تأويل الحكايات السريعة والتي تمر من أمام عدسة التاريخ متسارعة لتصب في نهر الزمن ذكرى تتأبى على الاستعادة، فالتذكر يخاتل الذاكرة والكلمات تخاتل قائليها، هي حكايات أكثر من سماء وما يجري تحتها من حيوات وهواجس قد أصبحت أشبه بمركبات الأفكار الذهبية حين ندعو النسيان إلى موائدنا العامرة ليمنحنا نعماءه، لكنه أصبح حقاً بطلاً آخر نستدعيه ونتوسله لأنه حارس تلك اليوميات الهاربة من تقويم الذاكرة والأيام، لاسيما أن الفقد هو واحد من عناوينها وأن الانتظار هو سمتها الرئيسة، بل علامتها الفارقة، فنحن انتظاريون بما يكفي، لكنه لا يكفي قصيدة تكتمل أو رواية تمضي إلى خواتيمها بهدوء، أو فرجة بصرية في مطلق شارع أو زقاق أو حارة منسية أو حديقة مهجورة، إلا من العصافير الملونة، هي مجاز أشواق من ذهبوا ومن ظلوا رغم نزيف الوقت يجترحون حكايتهم الأساسية الطويلة / القصيرة، في أعمار لا يعلم أحد سعتها، لأنها محكومة بأفعال القدر أكثر من رغبات لو كان بوسعها أن تمنح حياة فوق حياة، وأكثر من سماء لتظل الأحلام مشرعة وتتناسخ آلاف الأحلام، فهل أصبح العالم حقاً قرية واحدة، لكنها تضيق بسكانها، تضيق جداً حتى ليتساءل المرء: هل كانوا هنا حقاً؟.

أحمد علي هلال

مؤتمرون ومؤتمرات

■ مؤتمر ومؤامرة كلمتان من مصدر واحد: الأمر، وهما مرتبطتان ارتباطاً وثيقاً كما أثبت التاريخ المكتوب وغير المكتوب لمنطقتنا والعالم، فما زلنا ندرس مؤامرات ومؤتمرات سايكس بيكو وبلفور وغيرها، وننسى أن نسأل أين كان ساستنا وزعماؤنا، وشعوبنا بالتالي، فيما الآخرون يتآمرون ويعقدون المؤتمرات لرسم مصائر البلاد وتفتيتها وتقسيمها كما لو أنها ككعكة شهية؟...

وما زلنا نتحدث عن المؤامرات، وهي موجودة ما وجدت الحياة، ويبالغ البعض في اعتقاده بها إلى درجة مرضية، فيعيد كل ما يحصل معه إلى مؤامرة خارجية لعينة، حتى لو كان مغصاً معوياً أو نزلة برد...

من هؤلاء جارنا (أبو شومان) المعروف بـ(أخلاقه الضيقة) وتبرّمه الدائم إضافة إلى قامته القصيرة طبعاً وفقره المدقع، إذ كانت بقرته الوحيدة التي منحها إياه ابن عمه الميسور على سبيل الصدقة لا تدرّ سوى القليل من الحليب، وحسب تحليل أبو شومان فإن ابن عمه أراد أن يتخلص من هذه البقرة العجفاء فحمّله منّية وأعطاها له.

وأحياناً بعد رصد وتحليل يعترف بأنها كانت معطاءة وكان حليبها وافراً، لكن عيناً أصابتها من جيرانه الحساد، فصارت على هذا الوضع، وكان أن كتب أحد ظرفاء القرية على قفاها بواسطة عود متفحم عبارة: عين الحسود فيها عود.

كما نقل عنه في أحد المجالس أن راعي القرية لا يهتم ببقرته تحديداً ويمنعها من ممارسة الرعي الحر خلال النهار، ويضربها مما يسبب لها الرعب وبالتالي انقطاع حليبها.

وقد وصل أخيراً إلى اتهام زوجته المسكينة التي لم تكن تنجب سوى البنات بأنها متآمرة ضده، ولا تريد أن يصبح عنده شومان وإخوة لشومان ليصبح اسمه حقيقياً وليس لقباً اعتاد الناس عليه في القرى، وأرسلها مع بناتها إلى آخر من تبقى من عائلتها وهو أخ غير شقيق من قرية بعيدة. ولم ينته الأمر إلا بعد تدخل العقلاء وشيخ القرية والمختار ليقنعوه بأن المخلوقة لا علاقة لها بجنس الجنين، وأنها إرادة الله، وعليه أن يستمر في الإنجاب حتى يأتيه شومان ولو صارت عنده دزينة من البنات.

طلقة حبر

لكن ما كان ينقص أبا شومان هو أنه لم يكن قد سمع بكلمة مؤتمر، وإلا لكان عقد مؤتمراً كلما أحس بواحدة من المؤامرات الكثيرة عليه، فكان يكتفي بالحديث عنها والتفكير فيها وكيفية تجنب آثارها عبثاً.

فمصيبته الكبرى كما الملايين مثله كانت في الفقر الذي يجرّ معه سلاسل لا تنتهي من المصائب والكوارث، يضاف إلى الفقر قلة حيلته وجلوسه الدائم في البيت، بحجة أن الآخرين لا يقبلون تشغيله في أراضيهم، وهي حقيقة لأن أحداً لا يتحمل نقّه وشكواه الدائمة أثناء عمله.

يمكن تعميم حالة (أبو شومان) على كل ما يحصل في هذه البلاد والمجتمعات المنكوبة بمؤامرات من مختلف الأحجام والأنواع والألوان، مؤامرات تلزمها مؤتمرات مخصصة لمناقشة التحديات التي تتعرض لها البلاد، ومسيرات النضال المظفرة رغم الهزائم المنكرة التي تتعرض لها، حتى صار المؤتمر خبراً عادياً عابراً عند المواطن ال(عالم ثالثي)، سواء جاء في المانشيتات الأولى للصحف أم في الصفحات الداخلية، وصار أي حديث عن مؤامرة ولو كان صادقاً وحقيقياً (إذ لا يخلو الأمر من مؤامرة هنا ومؤتمر هناك) يبعث على الضجر إن لم يكن باعثاً على الضحك.

ثم تندلع الحروب، وقبلها يكون كل طرف بحاجة إلى ابتداع مؤامرة إن لم تكن موجودة، حتى يحشد أتباعه خلفه في الحرب التي يراها الجميع قادمة لا ريب فيها، ثم لا بأس من أن نستمر في المؤتمرات، مؤتمر يفرخ مؤتمراً، أو مؤتمر بقفا مؤتمر، والنتيجة واحدة: من مات خسرناه وخسره بلده، ومن اعتقل أو اختطف أو هجر أو هاجر أيضاً خسرناه وخسره البلد، وبقيت المؤتمرات وما يتبعها من ولائم وتكاليف إقامة وسفر و(الذي منّو) حكاية نافلة.

الآن، في هذه الأيام الباردة، كان علينا نحن السوريين أن تنشد أبصارنا إلى ثلاثة مؤتمرات دفعة واحدة، وكأنهم يعملون بالـ(جكارة)، يا شباب على الأقل نسّقوا مواعيد مؤتمراتكم حتى لا تتقاطع واحدها مع غيره، ونصاب بالتشتت الذهني، خصوصاً مع ساعات انقطاع الكهرباء الطويلة التي ستحجب عنا إطلالاتكم البهية في كل مؤتمر.

والعبد لله كمواطن سوري ما زال تحت سقف الوطن يرى أن (العناتر) لا يمكن لهم أن يصنعوا سلاماً، فقط من يكون مستعداً للتنازل عن بعض ما يريد ليأخذ بعض ما يريد يمكن أن يصنع السلام، فأين هذا الآدمي؟ يا أهل الصبر دلّوني....

ح . خ